

الكهنوت بحسب القديس سمعان المترجم - ٢

إعداد أسرة التراث الأرثوذكسي

الشر والشيطان والسقوط البشري

يقول القديس سمعان المترجم إن الشر مرتبط بشكل أساسي بالمتعدّي الذي يبدو أنه يعيش ويزدهر، على الرغم من حرمانه حقاً من الحياة الحقيقية في الله. الشيطان هو مَنْ تبنّى عن عمد تحوّل الشرير بمعارضته للسيد الذي خلقه. وهكذا، بسبب هذه المعارضة، أصبح سبب الهلاك لنفسه أولاً ثم لنا نحن البشر الذين أقنعهم بخداعه.

ولكن هناك فرق مهم بين الشيطان وبيننا نحن البشر في ما يتعلق بالشر. هو يظل دائماً متمرداً، ويظل شره دائماً ثابتاً وغير قابل للتغيير. نحن، من ناحية أخرى، يمكننا أن نقوم من جديد، لأننا حصلنا على النعمة بعد سقوطنا بسبب صلاح صانعنا الفائق. الشيطان يبقى غير قابل للتغيير، لأنه لم يسقط بالخداع، إذ لكونه غير مادي وخالي من الارتباك المادي وكثافة الجسد، فقد سقط طواعية من الخير الذي كان له وصول مباشر إليه. ولهذا لا مكان للتوبة عنده، بل هو يدفع نفسه عمداً إلى الشر ويبقى فيه ويتوسع من خلاله (١).

أما البشر، من جهتهم، فقد سقطوا لأنهم انخدعوا بخداع الشيطان. لذلك نالوا نعمة التوبة، حتى وإن ذاقوا الشر، يمكنهم أن ينظروا إليه بازدراء ويدوسونه. يستطيع البشر، بنعمة التوبة الإلهية، أن يشعروا ويتوقوا مرة أخرى لتلك الخيرات الحقيقية والإلهية، التي حرّموا منها، وأن يقوموا ويصبحوا متلقّين لرحمة الله وحنوّه وشركاء في الصلاح الإلهي المبارك.

ولهذا الغرض بالتحديد، تم إعلان تدبير الله في الأنبياء وفي الناموس وفي كل نظام ديني، وأخيراً بشكل كامل في تجسد الله. كل هذه الوسائل أعطيت للإنسان ليفهم سقوطه، ويتعد عنه وعن الذي أفسده وضلّه، ويعود إلى ما كان عليه في الأصل بل وأبعد إلى حالة أفضل. إن أعظم مظاهر تدبير الله هذه هي محبة المخلص للبشرية، والتي تم الكشف عنها بشكل ملموس في اتحاده بالطبيعة البشرية، كما سبق أن أشرنا. لقد أصبح تجسد السيد المحب للإنسان وصورته إنساناً سبباً في رفع الإنسان من سقوطه مرة أخرى. في هذا بالضبط يتوقّر الحل لمشكلة الكهنة غير المستحقين. ما يقترحه سمعان هنا هو أن الكاهن يحتاج أولاً إلى أن يشفي نفسه قبل أن يشفي الآخرين. يحتاج هو نفسه إلى الإصلاح وإعادة التكوين قبل أن يصبح فعالاً في ترميم الآخرين وإنعاشهم.

استعادة البشرية الساقطة

كيف بالضبط حقق التجسد استعادة الإنسان وتجديده؟ من جهة، يشير القديس سمعان إلى قيامة المسيح وصعوده، ومن جهة أخرى إلى الكهنوت المسيحي الذي أوجده المسيح. الأول هو الأساس والأخير هو وسيلة لتطبيق هذا الإنجاز. ما يلي هو شرح القديس سمعان.

بعد قصاص آدم، مُنحت إنسانيتنا في المسيح فرصة جديدة للحياة (ὄρον ζωής) وأصبحت خالدة لكن لم تعد ظاهرة للبشر الفانيين. لهذا صار مستحيلاً بعد الموت استنهاض البشر إلى التوبة والتجدد، خاصة الآثمين والخطاة الذين كانوا أصروا عمداً على خطاياهم، على الرغم من أن الكنيسة، التي هي الجسد المؤله الذي لا يفنى ولا يُمس، تحتل الألام عبر الشهداء القديسين الذين هم أعضاء فيها ويتألمون دائماً عنها. لذلك صعد المسيح إلى السماوات من أجلنا وليس من أجل نفسه، حيث لم يكن أبداً منفصلاً عن حضن أبيه الكلي الوجود. لقد فعل هذا من أجل إنسانيتنا، جسدنا، إذ أحضره إلى الآب كهدية ووضع على العرش من فوق، أي في السماء، فوق كل رئاسة وسلطان وقوة، كما قال القديس بولس. لقد جعله إلهياً (ὁμοθέαν)، ممجداً، مركزاً من كل الخليقة، وهياًه ضحية دائمة عنا تُقدم إلى الآب دائماً وهي عزاؤنا (παράκλησις)، وكفارتنا (ἰλασμός)، وغفراننا (Λυτήριον)، وموهبتنا (δῶρον) وجائزتنا (βραβεῖον) وتمتعنا العام (ἀπόλαυσις).

ولكن بما أن المخلص قد أنجز كل هذا وجلس على العرش أعلى عن يمين الآب، وما زلنا نحن البشر على الأرض وبحاجة إلى المخلص، فقد أعطانا من جديد نعمة الخلاص (την χάριν τοῦ σωτηρίου) بدافع الرحمة التي لا توصف، لأننا نلبس نفس الطبيعة البشرية ونخضع لنفس الأهواء؛ وكما هو الحال عندما أراد أن يخلص الإنسان، فقد أصبح إنساناً وليس ملاكاً، لذا فهو الآن يعطي هذه النعمة للإنسان وليس للملائكة، فهو لم يتحد بالملائكة إلا عقلياً فقط (νοερώς)، لكونهم لم يكونوا بحاجة إلى التجدد. من ثم صعد الرب وتمجد، وأقام الكهنة كمنقذين للعمل باسمه، ليكونوا مشكلي النفوس، ومرشدين إلى السماء، وأنواراً للحياة، وآباء، ورعاة وحفظة؛ وقد وهبهم قوته ليكونوا ما ذكرناه أعلاه أولاً لأنفسهم كما للآخرين!

إن هذه الدعوة السامية للكهنة، كما يقول القديس سمعان، وتسامي هذا السرّ، تجعلان من واجب جميع الكهنة إثبات أهليتهم لها. إنها تؤهلهم لتلقي قوة الله ونعمته ليصبحوا موزعين لها في وجودهم على الأرض! إذاً، ما وُصف أعلاه هو واجب ملزم على الكهنة لمصلحتهم الشخصية، كمال لمنفعة الكثيرين، إذ يجب أن يكونوا قدوة جيدة لهم حتى الموت. إن نموذجهم الأصلي هو المسيح نفسه الذي قال أنه "وضع نفسه من أجل الخراف" (يوحنا ١٥:١٠)، أو كما قال بطرس أنه "تألم لأجلنا" (بطرس الأولى ٢:٢١)، أو كما قال بولس "الذي لم يُشفق على ابنه، بل بذله لأجلنا أجمعين". هذه المواصفات مُتعلِّق بالمثل الأصلي للمسيح هي الإرث المشترك لجميع الكهنة الذي تنقله إليهم نعمة الله.